قصة قصيرة

الاجتهاد

شروكين

قصة قصيرة

الإجتهاد

شروكين

جلس الشـــاب (منتظر) ذو الثلاثة وعشـــرين عاماً، على طاولة قرب النافذة في ركن المقهى متململاً يقلب بيديه علبة السجائر حيناً وحيناً يتأمل خيط الدخان المنبعث من سيجارته وهو يتلوى على شعاع الشمس الداخل من النافذة. صباح يوم خريفي بارد.

ارتشـــف بعد هنيهة من كوب الشـــاي المركون جانباً على الطاولة. أعتاد الشـــاب (منتظر) ارتياد هذه المقهى الشـعبي في الحي القريب من محل سـكناه، اغلب مرتادي هذه المقهى هم من كبار السـن والبسـطاء، والعمال، والكسبة وذوي الاعمال البسيطة مثل الاسكافيين والبقالين، وبائعي اللحم.

طال جلوس الشاب في المقهى بلا جدوى. أذ لم يكن ينتظر أحداً، فهو لم يكن له أصدقاء أو رفاق بسبب انشغاله بكده من اجل لقمة العيش. كان في المقهى وقتئذ نفر قليل من العمال وكبار السـن جلسـوا متفرقين على الطاولات. يدخنون ويحتسون الشاي ويتحادثون فيما بينهم بصوتٍ خفيض.

وهو يشاهد عبر النافذة عامة الناس ينطلقون الى اشغالهم منذ الصباح. تذكر الشاب كلمات والده المتوفي منذ سـنة وهو ينصحه مراراً وتكراراً ويقول له: «أتقي الله يا بني. أنا رجل مريض فلا تثقل عليَّ همي وغمي، ما بالك لا تسمع كلام ابيك» وعادت له ذكرى والده بمرارة. عاتب نفسه والقدر. بعد ذلك حدثت ضجة في المقهى قطعت أفكاره وأعادته لو اقعه مرة ثانية عندما شـاهد العمال تجمعوا كالنحل حول رجل غريب دخل الى المقهى للتو. يعرضون عليه خدماتهم يسألونه ان كان يريد عامل أو اثنين. أكتفى بالصمت ولم يرد عليهم سوى بإشارة يده مبدي لهم الامتنان و أكمل طريقة بين الو اقفين. ومر عابراً الكراسي وهو يلقي التحية عليهم. ضل الشاب يلاحقه بنظر اته الى ان جلس على طاولة في الجهة المقابلة من المقهى حيث يجلس هو. فتح الرجل ازرار سـترته الداكنة وأرخى وشاحاً رصاصي من الصوف لف به رقبته، ووضعه على كرسي بجانبه. جاءه بعد لحظة عامل المقهى بسرعة مطأطأ راسه باحترام. وهو يكلمه، بينما عامل المقهى يهز رأسه باستمرار ثم انصرف.

لم يعتد (منتظر) ان يرى مثل هكذا اشخاص مترفين يرتادون هذه المقهى الا لغرض العمل وان حدث ذلك فانهم لم يطيلوا الجلوس فيها. بينما هو يراقب من بعيد هيئة الرجل الانيق ذو الخمسـين عاماً بشـعرٍ أشـيب ولحية بيضاء نقية وهو يحتسي الشاي ويتفحص الموجودين في المقهى فرداً فرداً، أشاح (منتظر) وجهه ناحية النافذة متعمداً خشيت ان يشعر به ذلك الرجل. وراح يشاهد من النافذة المارة. فلمح سيارة حديثة من نوع مرسيديس صفت على الرصيف القريب من المقهى. تحسر الشاب ورمى عقب سيجارته تحت قدمه ودعس عليها بسخط، ولما عاد ينظر الى ناحية الرجل تفاجئ به وهو يحدق فيه ثم أشـار عليه بيده ان يأتي اليه. امتقع (منتظر) واستغرب الامر. لكن الرجل الح في ذلك ثم نادى عليه بصوت هادئ وقال: «أيها الشاب. هلا تفضلت بالجلوس معي».

انتبه جميع من في المقهى، والتفتوا نحوه. قام بروية واخذ علبة السـجائر وراح مقترباً منه، فلما وصـل القى التحية عليه وسحب كرسـياً بجانب الرجل وجلس. بادره بابتسـامه دافئة وحنى راسه بتواضع. بينما هو شعر

الاحراج، فسأله الرجل: «هل أنت عامل أيها الشاب؟» كان صوته يبعث على الراحة والطمأنينة. بيد ان ملامح وجهه تفيض سماحة. فأجاب (منتظر): «كلا.. يا سيدي. بالأحرى أنا ابحث عن عمل» قالها بخجل. ابتسم الرجل وتورد وجهه. وقال: «هل ترى في العمل أحراجاً لك؟ لا بأس» وتناول كوبه وارتشف منه. ركز الشاب نظره الى الساعة التي كان على يد الرجل فخمن أن سعرها الباهظ. فرد عليه: «كلا. يا سيدي، أنما قلتُ الحقيقة لك، أنا لا زلت ادرس في الجامعة، لكن اعمل أيام الجمع والعطل» تدارك الرجل نفسه فجأة وقال: «آه.. لقد نسيت! اليوم هو الجمعة» ونظر الرجل في ساعة يده وهي تشير الى العاشرة. وقام على عجل وتناول وشاحه الصوفي وهو يقول: «الحمد لله والشكر. أحسنت أيها الشاب بارك الله فيك. لقد ذكرتني! اعلم انها ليست صدفة أن تجلس معي.. هيا اتبعني يا بني» اخرج محفظته المليئة بالنقود وترك على الطاولة ورقة من فئة العشرة آلاف وخرج مسرعاً من المقهى من دون ان يسترد الباقي بينما (منتظر) تبعه باندهاش الى الخارج. خطى الرجل بسرعة الى السيارة وصعد بينما (منتظر) وقف قريبا الباب. فأشار عليه الرجل ان يصعد. تردد في بادئ الأمر، فهو لا يدري الى اين سيذهب مع هذا الغريب فهو لم يكد يعرف اسمه على اقل تقدير لكن شعور الخوف والريبة لم تكن تخالجه ابداً من هذا الرجل.

انطلقت السيارة بهما. لم يكن بود (منتظر) أن يقول شيء غير ان رغبته في السؤال تلح عليه. لكن شعوره بالفخر والعجب كانا طاغيين عليه. وتخيل نفسه يقود هذه السيارة ببدلة انيقة وساعة يد فاخرة. قال الرجل: «دائما ما يبعث الله لي من يذكرني ان نسيت» وتلا آية من القران وقال: «إن تذكروا الله يذكركم» ثم سكت. وفي كل مرة يتكلم الرجل كلاماً يزيد من ارتياح (منتظر) ثم تبعها بأخرى وقال: «نسوا الله فأنساهم الله أنفسهم». هذه الآيات لم تبقي في قلب (منتظر) شك. ثم سأله: «أي عمل تتقن؟» رد الشاب: «البناء، وطلاء المنازل، قل انني أصلح في أي عمل بشرط أن أعمل تحت يد مختص» «حسناً. حسناً. هذا جيد» و انقطع حديثهما لفترة طويلة. لكن سؤالاً أكثر إلحاحاً ضل يراوده منذ ان غادرا المقهى. استجمع الشاب نفسه لتوجيه السؤال، لكن عزمه تبدد ما إن توقفت السيارة فجأة امام بو ابة عالية من القضبان الحديدية توسطت سياجاً يمتد على مساحة ألف متر حول حديقة واسعة في منتصفها برز قصرٍ فخم بلون ابيض بني على الطراز الإغريقي القديم. قال الرجل: «اذهب الى ذلك القصر و انتظرني ريثما انتهي من اعمالي واعود اليك»

توقف (منتظر) امام البو ابة بعد ان انطلق الرجل بسيارته بعيداً و انعطف الى شارع اخر على اليمين واختفى. فتح الشاب البو ابة الرئيسية وراح يمشي في ممر واسع من شجيرات الياس حتى وصل الى القصر ثم صعد السلالم المؤدية الى الباب الخشبي للقصر وراح مندفعا الى الأمام. ودخل الى القصر.

مشى بضع خطوات داخل القصر وعبر مدخلٍ قصير وصل الى صالون القصر. حيث يصعد درج ضخم بشكل منحني الى الغرف العلوية. وقف وتطلع الى النقوش الإسلامية التي زينت اركان الصالة واللوحات الزيتية وصور الخيول العربية و آيات قر آنية كتبت بالخط الكوفي المزهر علقت بعناية على الجدران. تجول مندهشاً في انحاء

متفحصاً القطع الاثرية والتحف المرتبة بشكل منتظم على مناضد من خشب الصاج واركان القصر. رائحة الخشب النادر تعبئ المكان.

لفت انتباه الشاب لمعان من الجهة المقابلة للدرج. فانسل ناحيتها. فاذا هو جدار ممرزين بالمرايا والكريستال النفيس. انبعثت من الممر الجانبي رائحة الغسول ومنظفات الحمامات. فلما عبر وجد احواض الاستحمام والغسيل. قدحت في باله فكرة ثم فتح صنبور الماء فتوضئ.

رجع الى الصالة يبحث في الدروج عن شيء فوجد في أحدها كتاب القرآن وسجادة للصلاة، قبّل القران ووضعه على جبهته وعندما رفع رأسه فاذا امامه لوحة زجاجية كبيرة معلقة، مكتوب عليها (ومن يتق الله يجعل له فرجاً ويرزقه من حيث يحتسب ولا يحتسب) دمعت عيناه، فخر ساجداً لله.

دن. دن. دن. هكذا دقت ساعة القصر تشبه أجراس الكنائس، انها الساعة الثانية ظهراً. افترش سجادته وصلى لله ركعتي شكر. وجلس يقرأ في القران. مضى ساعتين على وجوده في القصر من دون ان يأتي اليه أحد.

جلس على اريكة امام شرفة القصر يطالع الحديقة. فجأة فتح باب القصر ودخل رجل مسن يرتدي ثوباً بالي ويضع على رأسه غطاء أهل الجنوب (يشماغ). قام الشاب احتراماً للرجل وحياه بعدما اقترب الرجل منه من دون ان يوجه له سؤال فبادر الشاب بسؤاله وقال: «هل انت من اهل هذا القصر؟» رد عليه الرجل وهو يفتش في درج أحد الدواليب وقال: «كلا.. انا بستاني القصر، أ لا ترى بساطة هيئتي، انها لا تنبء سوى بفقري، لولا لطف الله وخير الحاج (طاهر) لمت جوعاً» التقط الرجل كومة مفاتيح وأعاد الدرج فسأله الشاب:

«لقد أحضرني صاحب القصر الى هنا ثم ذهب ولم يخبرني ما الذي عليّ القيام به في هذا القصر؟» قلب الرجل المفاتيح باحثاً عن واحد وقال: «لقد ذهب الى أداء صلاة الجمعة، فهو حريص على المحافظة على أداءها وأداء صلاة الجماعة في المسجد، اما ما عليك القيام به هو الانتظار» رد الشاب: «بلى التمست ذلك من سيماء وجهه وطريقة حديثة. يبدو أنه مؤمن. قل لي يا عم. هل القصر بحاجة الى عمل او ترميم؟ ربما جاء بي لأجل القيام بترميمات ولكن لا يبدو على المكان ذلك» رد الرجل: «لا اظن ذلك. لكن الحاج (طاهر) يحب ان يساعد الاخرين، فقد عين حارسين ليليين للقصر مع ان واحد يكفي. لكنه يحاول بأي طريقة مساعدة المحتاجين» رد الشاب: «أ لا يوجد أحد في القصر يا عم؟» «ليس من شأني التحدث بهذه الأمور» تأمل الشاب قليلاً وسأل: «هل تحتاج مساعد لك في ترتيب الحديقة يا عم؟» دلف الرجل الى الباب دون ان ينبس بكلمة وراح خارجاً من الباب بينما (منتظر) تبعه وهو يقول: «يا عم أنا لا أقصد مزاحمتك في عملك، أنا فقط اريد مساعدتك لوجه الله صدقني» أكمل الرجل طريقه نازلا السلالم وراح يمشي ببطء في ممر الشجيرات وتوقف فجأة وقال: «أنظر يا بني. أترى هذه الحديقة تحتاج الى ترتيب وتنظيم؟» مد الشاب نظره الى ابعد نقطة وقال: «الحق أقول. أنها مرتبة بأجمل ما يكون، لكن ربما تحتاج الى راحة يا عم وتشرف على العمل الذي تطلبه مني» و انحنى وقبل يد البستاني وتضرع اليه وقال: «أرجوك يا عم. أطلب من الحاج ان يقبل بي للعمل معك في الحديقة، اقسم بالله أنى سئمت

العمل البائس والشاق، اتوسل اليك» وكشف القميص فلمح الرجل أثار جروح على كتفه لكن الرجل أفلت يده بعيداً وقال: «أستغفر الله يا بني. توسل الله بدلا مني فهو الرازق» بدا على وجه الرجل الاستياء والسخط وهو يتعوذ بالله وتنحى جانباً بينما الشاب (منتظر) انتصب و اقفاً وقال بحزم: «لو كان هذا الكلام صحيح لرزقني الله كما رزق صاحب القرعلى السواء. أترى أن الله وهب كل هذا الملك للحاج (طاهر) حباً به دون غيره؟» غضب الرجل العجوزمما سمع فارتجفت يداه وسقطت المفاتيح من يده، وحنى ظهره نازلاً يلتقطها من الأرض بينما (منتظر) ينظر اليه وقال: «أ لا ترى أنك بحاجه الى مساعدة يا عم؟ لقد كبرت، ولم تقوى حتى على حمل كومة المفاتيح، ها هي يداك ترتجف من الضعف. ارجوك. أرجوك أشفع لي عند الحاج»

انتصب الرجل وهو ينظر في وجه (منتظر) الأسمروشفتاه الذابلتان من الشمس وتفحص ملامحه البائسة، فقال: «يهديك الله يا بني. يهديك الله» و انصرف من عنده الى حجرة صغيرة عند نهاية الحديقة.

رجع الشاب الى القصروقرر أن يعيد ترتيب الأثاث، فنزع جميع اللوحات المعلقة. وبدء بمسح الأرضية المصنوعة من المرمروازال الغبارعن الانتيكات والتحف. وراح منغمساً في العمل دون مللٍ او كلل حتى دقت الساعة، دن، دن، دن، انها السادسة مساءاً. مسح العرق من جبينه واخرج علبة السجائروقال في نفسه: «لقد تأخر الوقت ولم يأتي الحاج (طاهر)» أشعل سيجارته وتنهد بعمق. شعر بسعادة غامرة تملأ فؤاده. استأنف عمله من جديد فقد أوشك على الانتهاء، بينما هو منهمك في تلميع اللوحة وإذا بالباب تفتح ودخل الحاج (طاهر) يتبعه البستاني. قابلهما بابتسامه عريضة وشعورالفخروالاعجاب بادٍ على وجهه. شاهد الحاج (طاهر) ما قام به الشاب. لكنه لم يبدي اعجابه قط. اسبل (منتظر) يديه والخيبة غيرت ملامح وجهه المتعب جداً. تبددت اماله وخابت، قلب الحاج (طاهر) مسبحته بكفيه ونظر اته الحادة تمسح الصالة صعوداً ونزولاً يمنةً ويسرة فقال: «من طلب منك ان تقوم بهذا الفعل؟» رد الشاب بحسرة ووجه عابس: «أنا.. يا سيدي.. اجتهدت بهذا الفعل، ظناً مني انه سيلقى استحسانك ورضاك طمعاً في توظيفي في هذا القصر» رد الحاج (طاهر) بنبرة هادئة: «ما هكذا تورد الإبل يا بني؟» تلعثم الشاب فقال: «نيتي عمل الخير لا أكثريا سيدي لأنك رجل تستحق»

«نعم. عمل الخير حسنٌ يا بني، كلنا نحب ذلك بالفعل، لكن ليس متاح لنا ان نتصرف في ملك غيرنا بما نشاء» صمت الشاب ولم ينفوه بشيء وهو يمسح جبينه بينما الحاج (طاهر) خطى على مهلٍ وهو ينظر في الجدران وسأل: «أيها العم (راضي) هل علمته شيء مما تعرف؟ أنا احترم حكمتك وتقواك» أجاب العم (راضي): «بلى فعلت يا حاج» ومال برأسه وسكت. فقال الحاج (طاهر):

«أسمع يا بني.. بؤسنا وشقاؤنا، مصدره واحد، وعلاجه واحد. وهو اننا نسير من غيرهدى وتوجيه، نتصرف لوحدنا» رد الشاب والعبرة تخنقنه وقال: «يا حاج.. تذكرت سؤالك إياي في المقهى عن العمل، وطلبت مني ان اصحبك الى هنا فظننت أنك تبحث عن عامل» قاطعه الحاج (طاهر): «لكني لم اخبرك ما العمل وما مطلوبٌ منك؟ و انت لم تسألني؟ ألم اطلب منك ان تنتظرني ريثما اعود؟» ثم التفت الى العم (راضي) وسأله: «لمَ أنت ساكت يا عم؟ ما رأيك أنت؟» أجاب العم (راضي): «الرأي رأيك يا حاج» وسكت بينما الشاب امتلئ صدره

غيضاً ودمعت عيناه وهو يصغي بمرارة متذكراً كلام والده له. بعد ذلك دنى منه الحاج (طاهر) وهمس في أذنه: «أسمعت ما قال الرجل العجوز؟ اتعرف ما معناه يا بني؟» رد عليه وقال: «انه رجل يطيع سيده مهما بلغ به العمر، ولا يبدي رأياً أمامه» رد الحاج (طاهر): «أتمنى أنك عرفت الحكمة من ذلك يا بني. اذهب الى حال سبيلك، فلا عمل لدي لمن يجتهد برأيه»

ألقى الشاب (منتظر) قطعة القماش من يده ومسح الدموع التي سالت على خده وغادر القصر من دون ان يعترض.

انتهت.